مقـــدمـة

يُعَدّ الصراع العربى الإسرائيلى نمطًا فريدًا من الصراعات الإقليمية والعالمية. فقد نشأ هذا الصراع مخططًا من قوى دولية تعانقت مع إسرائيل فى لحظة تاريخية معينة متسترة وراء دوافع دينية لتحقيق أهداف سياسية بحتة تتمحور حول إعاقة هذه المنطقة العربية من إحداث أى درجة من درجات التنسيق أو التكامل أو الوحدة. ولذلك فقد نشأ هذا الصراع من رحم الرغبة فى اغتصاب الأرض بقوة استعمارية استيطانية، والتنكيل بالشعب الفلسطينى والعربى ومحاولة إلغائه من الوجود، بالإضافة إلى محاولة محو الذاكرة الفلسطينية والعربية وترويضها على قبول «الآخر» الإسرائيلى بالعنف والقهر.

وبرز هذا الصراع ليظل ويبقى وينتقل من أجيال إلى أجيال دون انتهاء. وقد تدخل مرحلة لمحاولة فك طلاسم هذا الصراع، تسمى «مرحلة السلام»، وقد يتصور البعض أن هذه المرحلة هى مرحلة نهائية لإنهاء صراع دام أكثر من نصف قرن منذ نشأة إسرائيل، ووصل لما يقرب من قرن كامل منذ وعد بلفور عام ١٩١٧م الذى جاء تتويجًا لمؤتمر بازل بسويسرا الذى كان بمثابة الإعلان عن ميلاد الحركة الصهيونية رسميًا قبل نهاية القرن التاسع عشر بعامين. ولا شك فى أن هذا تصور خاطئ. فقد تسهم «مرحلة السلام» الحالية فى تأجيل الجانب العسكرى - أو احتمال إلغائه ولو مؤقتًا!! - فى الصراع العربى الإسرائيلى، ولكنها لن تلغى الصراع فى جوانبه الأخرى سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا وحضاريًا.

وتأكيدًا لذلك، فإنه على الرغم من تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل منذ عام ١٩٧٩م، ومنذ أكثر من (٢٥) عامًا على المستوى الرسمى، وبرغم الصخب الشديد لبعض الفئات الداعية لهذا التطبيع أو المطالبة بالدعوة لذلك قهرًا أو مقابل مصالح

متبادلة أو لسبب أو لآخر، فإن هذا كله لم يتمخض عنه إلا تطبيع محدود للغاية. وقد اختُزل ذلك فى عدد محدود من الرسميين؛ لأن عددًا من أصحاب المناصب الرسمية يرفض ملاقاة الإسرائيليين، وأيضًا يرفض كثيرون التعامل مع هؤلاء القوم تحت أى ستار أو لافتة!! وفى المعنى الأخير فإن ما تمخض عن تطبيع العلاقات بين مصر أو دول عربية أخرى وبين إسرائيل، هو حجم متواضع للغاية.

وقد يتصور البعض أن هذه من طبيعة الأمور فى البداية، وأن التطبيع الكامل آت، وأن السلام مسألة استراتيجية لا مرحلية، وقد يكون الأمر فى جزء من ذلك صحيحًا بصورة مؤقتة، إلا أن الصورة الكلية تشير إلى أن الإحجام الشعبى والجماهيرى عن التعامل مع الكيان الإسرائيلى الصهيونى له ما يسوغه من أن هناك ارتباطًا سلبيًا فى وجدان هذا الشعب العربى تجاه هذا الكيان من واقع تاريخ وأسلوب زرعه فى جسد المنطقة العربية، بحسبانه دخيلاً على هذا الجسد. كما أن هذه النظرة يغيب عنها التصور الإسرائيلى نفسه الذى لا يزال يحتفظ بترسانة من الأسلحة النووية، ومن الأسلحة الاستراتيجية وغيرها، ولا يزال يعتقد فى صواب نظرية التفوق الكاسح فى موازين القوى على كل الغرب، ولا يزال ينظر إلى «السلام» بحسبانه أمرًا مؤقتًا وليس سلامًا دائمًا، ويعتقد فى سيادة مفهوم «السلام الإسرائيلى» لا السلام العادل والذى يراعى حقوق الآخرين.

ولذلك فإن التعامل مع إسرائيل، دون إدراك الرفض الشعبى، ودون إدراك الإصرار الإسرائيلى على الهيمنة وفرض السلام الإسرائيلى، يفضى إلى نتائج وخيمة.

ولذلك أيضًا، فنحن نعتقد أن السلام الحالى مرحلة أو حلقة من حلقات الصراع، ويتوقف تطوره واستقراره على حسن نوايا إسرائيل إزاء العرب فى هذه الآونة. إلا أنه مع ذلك لا يمكن أن يحل الصراع العربى الإسرائيلى أو يلغيه، بل سيتحول هذا الصراع إلى أبعاده الأخرى التى سبق أن أشرنا إليها والمتمثلة فى البعد الحضارى والبعد السياسى والبعد الاقتصادى والبعد الاجتماعى والبعد الثقافى وغيرها.

وفى المعنى الأخير سيظل الصراع العربى الإسرائيلى صراعًا مركزيًا لأمد غير منظور، ولأجيال لم تولد بعد.

* * *

وعلى الجانب الآخر من الصورة، فقد وصل «آرييل شارون» إلى رئاسة الحكومة الإسرائيلية خلفًا لـ «باراك» - الذى ظهر وسوَّق نفسه بوصفه حمامة السلام وغصن الزيتون - وذلك فى فبراير عام ٢٠٠١م ولم يكن قد مضى على تولى «چورچ بوش الابن» رئاسة الولايات المتحدة نحو شهر. وظهرت الصورة وكأن القدر يرسم خطاها وملامحها فى ميلاد محور جديد هو محور «شارون - بوش» - أو «بوش - شارون» ولا فرق. واتسم شارون بالعنف الذى يصل إلى حد الهمجية، وأقسم بعد توليه السلطة، أنه سيقضى على انتفاضة الشعب الفلسطينى التى اندلعت فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م بعد تدنيس شارون للمسجد الأقصى بحذائه وسط دهشة العالم كله، والتى تحولت إلى حرب للتحرير والاستقلال لم تتوقف برغم مرور أكثر من أربعة أعوام على اندلاعها، وذلك خلال مائة يوم فقط.

ويوم أن دنس شارون المسجد الأقصى، كان مجرد وزير فى حكومة باراك، وبعد عدة أشهر أصبح رئيسًا للوزراء وأعيد انتخابه مرة أخرى بعد طرح الثقة به فى الكنيست وأصبح يمثل إرادة الشعب الصهيونى، الذى أعطى ثقته لهذا الشخص الهمجى الدموى بزعم أنه قادر على سحق انتفاضة الشعب الفلسطينى كما وعد. إلا أنه وبرغم مرور نحو أربع سنوات على توليه رئاسة الحكومة الإسرائيلية، لم ينجح فى وقف هذه الانتفاضة التى أصبحت باستمرارها، نزيفًا دائمًا فى الجسد الإسرائيلى، اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا وأمنيًا بل وثقافيًا أيضًا.

وصحيح أنه استطاع أن يدمر البنية الفلسطينية من مرافق ومؤسسات، ويقتل المئات التى وصلت للآلاف من الشعب الفلسطينى، ويغتال القيادات الفلسطينية واحدًا تلو الآخر، وأن يقتحم معسكرات الشعب الفلسطينى فى جنين وطولكرم ونابلس وغيرها بالضفة الغربية وقطاع غزة حتى وصل إلى الحدود المصرية فى «رفح». إلا أنه فوجئ ببطولات ومقاومة لا حدود لها تصدت لهذا العدوان الشارونى البربرى، وأعاقت تقدمه، وأجبرته على الانسحاب وسط تهديد بإلغاء السلطة الفلسطينية التى ولدت باتفاق كسيح هو اتفاق أوسلو - الذى عولنا عليه مع آخرين، الكثير من الأمانى. لكن بكل أسف تمخض الجبل فولد فأرًا، حيث السلطة الفلسطينية المأسورة، وزعيمها ياسر عرفات المحاصر منذ ديسمبر ٢٠٠١م حتى وفاته أو اغتياله (لا فرق)، ثم سلطة جديدة مقيدة برئاسة محمود أبو مازن، ورثت الزعيم عرفات دون أفق للمستقبل.

واستمرت الانتفاضة البطولية للشعب الفلسطينى التى أضحت حربًا للتحرير والاستقلال لأربع سنوات متتالية دون توقف ولا زالت مستمرة فى عامها الخامس، واستمر فى مواجهتها عدوان صهيونى بربرى بقيادة شارون. وراح ضحية هذه المواجهة طبقًا لآخر التقارير ما يقرب من أربعة آلاف شهيد فلسطينى، وفى المقابل قتل ما يقرب من (١٥٠٠) شخص إسرائيلى صهيونى، بخلاف أعداد الجرحى على الجانبين وهم كثيرون ووصلوا للآلاف. ولكن تبقى المعادلة الصعبة بين شعب فلسطينى أعزل يقاوم بلا أسلحة ويقدم التضحيات بغير حدود دفاعًا عن أرضه وعرضه وتاريخ الأمة العربية كلها وليس مجرد الوطن الفلسطينى، وبين دولة تقودها عصَابة همجية برئاسة شارون المنتخب من شعبه الإسرائيلى المنحاز بحكم هذا الاختيار إلى العنف والإرهاب والاستعلاء، وتمتلك أعتى أنواع الأسلحة التقليدية وأسلحة الدمار الشامل والسلاح النووى.

وبرغم هذه المعادلة المختلة فى ميزان القوى الفلسطينى الإسرائيلى، فإن نسبة عدد الشهداء الفلسطينيين إلى عدد القتلى من الجانب الإسرائيلى لم تتجاوز (٤) فلسطينيين: (١) إسرائيلى.

وتُعَدُّ هذه النسبة فى تاريخ النضال الإنسانى ضد قوى الاستعمار والاستعباد للحصول على الاستقلال، هى نسبة بسيطة. فما زال لدى الشعب الفلسطينى القدرة على تقديم المزيد من الشهداء وإن كنا نتمنى أن نصل إلى الاستقلال الفلسطينى بلا شهيد واحد، ولكن هذا الأمر هو مسألة صعبة إن لم تكن مستحيلة فى التاريخ الإنسانى.

وعلينا أن نتذكر أن الشعب الجزائرى ضحى بمليون ونصف شهيد، وراح فى المقابل (٦٠) ألف قتيل فرنسى بنسبة (١ : ١٧) تقريبًا، وأن شعب ڤيتنام ضحى بما يزيد على ثلاثة ملايين قتيل مقابل (٦٠) ألف قتيل أمريكى (لهم تذكار فى واشنطن للزائرين)، وكذلك قدم الشعب الإفريقى فى أغلب دوله المزيد من التضحيات والشهداء وفى مقدمتهم شعب جنوب إفريقيا الذى استطاع أن يقدم الآلاف من الضحايا مقابل القضاء على الحفنة البيضاء التى ظلت تتحكم فى مقدرات الجنوب الإفريقى سنوات طويلة، وهو ما حدث وانتصرت إرادة النضال هناك. وخرج «نيلسون مانديلا» بعد (٣٦) عامًا قضاها فى السجن ليصبح رئيسًا للدولة ويقضى تمامًا على سياسة التمييز العنصرى

للأبد. ودخلت جنوب إفريقيا من أوسع الأبواب إقليميًا ودوليًا بالنموذج النضالى والنموذج الديمقراطى والتقدم العلمى والاقتصادى . . . إلخ.

وأعتقد - حسب ظنى - فى صواب انتصار إرادة النضال الفلسطينى على همجية النظام العنصرى الصهيونى المسمى بدولة إسرائيل، مهما كانت درجة المساندة والدعم غير المحدود من جانب أقوى الدول فى العالم وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية.

ويكفى القول بأن مجرد إبداء شارون لرغبته فى الانسحاب من قطاع غزة، ما يؤكد انتصار المقاومة الفلسطينية الباسلة برغم التضحيات الجسام عدة وعتاداً وبشراً. ولكن بكل أسف تسعى بعض الأنظمة فيما يمكن أن نسميه «دعارة سياسية»، لتكون غطاء للانسحاب الإسرائيلى حفاظًا على ماء وجهه وتجنبًا للقول بأنه يخرج من غزة تحت إرادة انتصار المقاومة الفلسطينية، مثلما حدث فى جنوب لبنان، حيث اضطر العدو الصهيونى للانسحاب بلا قيد أو شرط أمام المقاومة اللبنانية بقيادة «حزب الله». ومهما حدث، فإن هذا العدو الهمجى الفاجر سيضطر إلى مغادرة غزة والضفة الغربية مهما امتلأتا بالمستعمرات الصهيونية، وسيضطر لهدم الجدار الفاصل تحت قوة وصلابة المقاومة الفلسطينية الشجاعة. وهذه التوقعات من خبرة التاريخ وقراءة الواقع بعيون غير استسلامية أو انهزامية.

إن إسرائيل خُلقت بوعد بلفور لتكون شوكة فى ظهر الفكرة القومية العربية ولتحول دون تحقيق الوحدة العربية لهذا الكيان العملاق إذا ولد فى هذا الموقع الاستراتيجى. وستظل هذه الدولة منذ الإعلان الرسمى عنها عام ١٩٤٨م، فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، مشروعًا استعماريًا غربيًا تلقفته الولايات المتحدة بعد بريطانيا ليظل العرب تحت السيطرة الغربية للأبد ودون أن يستطيعوا خلق كيان يحظى بالاحترام تحت شمس هذا العالم.

إن إسرائيل فى المعنى الأخير كانت البديل للاستعمار الذى رحل أمام تنامى حركات الاستقلال والمد الوطنى الذى اجتاح المنطقة والعالم الثالث كله بعد الحرب العالمية الثانية، بحكم أنها مشروع استعمارى، وكيان استيطانى يقوم على اللصوصية والاستغلال بزعم الحق الدينى والوطنى اليهودى الموعود . . إلخ هذه الأكاذيب.

فكما كان الاستعمار قبل موجة التحرر والاستقلال، يقوم باستنزاف البلدان

والشعوب المُستَعمَرة لحساب الدول الاستعمارية، فإن إسرائيل خُلقت لتكون الآلية البديلة لاستنزاف موارد الشعوب العربية للحيلولة دون التكامل والتقدم. ويؤكد هذا الاستنتاج الحروب الخمس التى شهدتها المنطقة بقيادة إسرائيلية (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ١٩٨٢م)، بخلاف حرب الاستنزاف فى الفترة من ١٩٦٧ - ١٩٧٣م، وبخلاف دوامة الغزو العراقى للكويت عام ٩٠ / ١٩٩١م، وبخلاف الحرب الأمريكية البريطانية ضد العراق فى ٢٠ مارس ٢٠٠٣م، وما زالت تداعياتها مستمرة مع استمرار الاحتلال الأمريكى البريطانى للعراق حتى الآن (لحظة كتابة هذه المقدمة).

وتؤكد هذه الحقيقة أن أكثر المناطق تعرضًا للحرب فى النصف الثانى من القرن العشرين وحتى الآن (نحو ٥٥ عامًا)، كانت المنطقة العربية أو باللغة الاستعمارية (منطقة الشرق الأوسط). وفى جميع هذه الحروب فإن القاسم المشترك فيها هو إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. والسؤال الكبير الذى يفرض نفسه فى هذا السياق: هل يمكن أن نتوقع فى ضوء هذه الحقائق الدامغة، ولو على سبيل التصور، سلامًا عادلاً ودائمًا فى المنطقة بإرادة دولية وقبول إسرائيلى وبدون مقاومة عربية؟!

لقد كشفت استطلاعات الرأى فى أوروبا فى مطلع عام (٢٠٠٤م)، أن إسرائيل والولايات المتحدة هما أكبر دولتين فى العالم تثيران المشكلات والاضطرابات والانقسامات وعدم الاستقرار، وأن إسرائيل هى أعلى الدول فى العالم الأكثر إثارة للاضطراب وتسبق كوريا الشمالية وإيران والعراق (دول محور الشر حسب توصيف الرئيس الأمريكى بوش فى خطاب الاتحاد فى يناير ٢٠٠٢م).

***

لذلك فإن هذا الكتاب - وهو يمثل بعضًا مما كتبت فى هذا الموضوع - وقد وضعت له عنوانًا هو «ثقافة المقاومة وحرب التحرير فى إدارة الصراع العربى الصهيونى» فإنه يعكس موقفى السياسى والفكرى فى فهم طبيعة هذا الصراع ومساراته ومستقبله.

فقد ضم الكتاب (٩) تسعة فصول، بعضها يتناول حتمية المقاومة وحرب التحرير والاستقلال منذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية فى سبتمبر عام ٢٠٠٠م ومرورًا بالحقبة الشارونية منذ نجاح شارون رئيسًا للوزراء فى إسرائيل فى فبراير عام ٢٠٠١م، وتعانقه مع نجاح بوش وإدارته اليمينية المحافظة ذات التوجه المسيحى الصهيونى، وكذا مرورًا

بالانسحاب المخزى لإسرائيل من جنوب لبنان بلا قيد أو شرط وانتصار إرادة المقاومة بقيادة حزب الله فى مايو عام ٢٠٠١م. بينما تتناول بعض الفصول الأخرى، إدارة مرحلة السلام ومحاولات إقامة الدولة الفلسطينية فى ظل اتفاقى أوسلو ١٩٩٤، ١٩٩٥م، وتحديات هذه العملية، وذلك دون نسيان موقع هذه القضية فى الانتخابات الأمريكية فى ظل إدارتى كلينتون وبوش (الديمقراطى، والجمهورى)، ورؤية كل منهما لهذه القضية وهذا الصراع. وقد قسمت كل فصل إلى عدة مباحث حسب طبيعة موضوع كل فصل.

وفى كل ثنايا الكتاب وأقسامه المختلفة، تكمن رؤيتى بوضوح حول طبيعة هذا الصراع وسماته ومساراته. وأؤكد بالرأى أن التفاعل مع عملية السلام باعتبارها مرحلة من مراحل الصراع العربى الصهيونى قد يفضى إلى إقامة دولة مستقلة فى أى صورة، إلا أن هذا قد يفضى بالتبعية، فى ظل شروط معينة إلى استئصال هذا الكيان الاستيطانى الصهيونى إن لم يكن استيعابه داخل دولة فلسطينية أوسع كما كانت قبل الاحتلال البريطانى لفلسطين، مثلما جرت الوقائع والأحداث فى الجنوب الإفريقى. فالكيان الصهيونى المتمثل فى دولة إسرائيل إلى زوال، إن لم يكن اليوم فغدًا، وإن لم يكن الغد القريب، فالغد البعيد لن يكون بعيدًا جدًا.

وأتمنى من كل من يقرأ هذا الكتاب ألا يفهم أن حديثى عن إدارة مرحلة السلام هنا يمثل تناقضًا، بل هو استيعاب للواقع الصعب، فى ظل الرؤية الشاملة ومرتكزاتى الفكرية التى لا أخرج عنها بل أكاد ألتزم بها التزامًا صارمًا. فالصراع العربى الصهيونى هو صراع وجود ومصير وسيستمر إلى أن يتم استئصال هذا الكيان الغريب عن منطقتنا العربية.

وختامًا: إننى آمل أن أكون بهذا الجهد قد قدمت شيئًا ذا قيمة لقارئنا العربى لكى تظل ذاكرته حية ويظل إدراكه يقظًا إزاء هذا الصراع العربى الصهيونى، بوصفه صراع الماضى والحاضر والمستقبل. وأدعو الله أن ينصف رؤيتى - مع آخرين - فى فهم وتحليل واستشراف مسار هذا الصراع الذى نتوقع له طريقًا معينًا فى المستقبل، وإن غدًا لناظره قريب.

والله الموفق

د. جمال زهران

مارس ٢٠٠٥م